

العنوان:	التاريخ الجديد وريث مدرسة الحوليات
المصدر:	مجلة أمل
الناشر:	محمد معروف
المؤلف الرئيسي:	مارتان، هيرفى
مؤلفين آخرين:	ناجى، المصطفى، بوردى، كد(مترجم، م . مشارك)
المجلد/العدد:	مج 2, ع 6
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	1995
الصفحات:	78 - 97
رقم MD:	407654
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase, EcoLink, HumanIndex
مواضيع:	الجوانب الاجتماعية ، التاريخ ، الكتابة التاريخية ، مدرسة الحوليات ، فرنسا ، العلوم الاجتماعية ، المؤرخون الرفنسيون ، الايديولوجيات
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/407654

التاريخ الجديد وريث مدرسة "الحوليات"

هيرفي مارتان بتعاون مع گي بوردي
ترجمة : المصطفى ناجي

التاريخ الجديد، هذه تسمية مسؤولة، قذفت بها على الساحة وجوه لامعة من مدرسة الحوليات، سنة *1978*، (انظر معجم التاريخ الجديد، منشورات Retz - باريس *1978*، بإشراف Jacques Le Goff ، ومساعدة Jacques Revel, Roger Chartier ، وهي تسمية بعيدة عن أن تكون موضوع إجماع في عالم المؤرخين. أولا، داخل مدرسة الحوليات نفسها، حيث اكتشف البعض في نفسه ميلا مفاجئا للتاريخ القديم على طريقة Fustel de Coulanges، وانتقد البعض الآخر بشدة كون أنصار المجلة العتيدة يمتلكون تصورا موحدا عن التاريخ، بينما أعطى المؤسسون أهمية قصوى "لاختراق جميع الميادين"، كما يذكرنا بذلك François Furet . ثانيا، لدى الماركسيين، الذين نفهم من كلامهم أن الجدة التي يتم التلويح بها بصخب، ليست سوى إعادة اكتشاف لبعض التوجيهات الأساسية لماركس، بعدما تم إخفاؤها خلال عدة سنوات. وأخيرا، داخل الكتائب الكبرى لطائفة المؤرخين، حيث انتقد، بشكل فوضوي، الجانب الإشهاري للمشروع، والامتيازات الممنوحة للغة "الإعلامية"، ومغامرة بعض البحوث المنجزة في ميدان الاتنو - تاريخ أو السيكو - تاريخ، وخصوصا الإمبريالية الفكرية لاتجاه يدعي "تجديد الحقل التاريخي بأكمله"، ويتجاهل مساهمة بعض أوائل المجددين. كيف لا نندهش، فعلا عن سكوت موسوعة التاريخ الجديد، الضخمة، المتقلبة، والثرثارة غالبا، عن عمل مثل عمل Henri - Irenée Marrou ؟ وكيف لا نندهش، على النقيض من ذلك، عن الرضى - الذاتي المعبر عنه من طرف البعض، أمام "الأعجوبة الفرنسية" في ميدان التاريخ؟ إن هذا التمجيد المفرط قد جر على هؤلاء ملاحظات قليلة الدماثة، ولكنها صائبة جدا، صادرة عن مؤرخ إرلندي، W. den Boer ، حيث يرى أن

"**الحوليات**" و"التاريخ الجديد" قد استفادا من ميكانيزم معروف جيدا في تاريخ العلوم، يسميه ظاهرة التركيز الضخم، أو مبدأ القديس ماتيو Matthieu : «ويقوم هذا المبدأ، في تاريخ العلوم، على نسبة اختراعات علماء عديدين إلى عدد قليل منهم فقط. كما يقول ذلك الإنجيل: "لأننا سنعطي المزيد لمن يملك، أما من لا يملك فسنجرده حتى مما يملك"». (التاريخ ومناهجه Presses Universitaires de Lille، *1981*، ص. *90 ـ 91*). ويضيف هذا الكاتب: «بفرنسا، كما ببلدان عديدة غيرها، كانت توجد أفكار، وبرامج، ونماذج شبيهة بما لدى **الحوليات**، ولكنها تنتمي إلى زمن سابق على خلق هذه الأخيرة». إن Marc Bloch وLucien Febvre لم يكتشفا حقا شيئا ذا بال، ولكنهما أتاحا «لمقاربة عصرية للتاريخ أن تعرف النجاح مبكرا بفرنسا، وأن تصبح مؤسسة، الشئ الذي أدى إلى إقامة مقرات، وأتاح إمكانية البحث والنشر». وهناك ما يدعو إلى الظن بأن هذا الخطاب موجه أيضا للتاريخ الجديد الذي لازال يستخدم لصالحه مبدأ القديس ماتيو ويتكفل هو نفسه بإنتاج تاريخه الخاص، كما تشهد بذلك مقالتان ظهرتا بالحوليات ESC سنة *1979*، تعود الأولى لأندريه بورغيير André Burguière، والثانية لجاك ريفَيل Jacques Revel، وتتناولان الحوليات *1929 ـ 1979*! ورغم موضوعيتهما، فإننا نقرأ فيهما أن روح **الحوليات** قد أصبحت «قاسما مشتركا بين أغلب المؤرخين» وأن دور النشر والصحف تضاعف «إنتاجا اختار طواعية تكييف التاريخ على طريقة **الحوليات**»، وهي طريقة تعتبر ضمنيا نموذجا مطلقا!

سنبتعد هنا عن المواقف السجالية، ونترك للآخرين أن يصفوا بموهبة وسخرية، العادات الغريبة لعشيرة سلطة المثقفين intello crates ، وسنبحث، بطريقة أكثر كلاسيكية، عن وصف للدعامات المؤسساتية التي يتوفر عليها التاريخ الجديد، وتحليل المراجع الأكثر رواجا لدى أتباعه، وحصر مواضيع بحوثهم، ونتصدى أخيرا لفهم المستهلك في إعادة قراءة الوثائق وتجديد الأدوات القديمة لخدمة الإشكاليات العصرية. وسوف نشير، مرورا، إلى التعديلات التي مارسها التاريخ الجديد على روح **الحوليات** الأولى.

1 ـ مؤسسة قوية.

منذ وفاة لوسيان فيفر L. Febvre سنة *1956*، احتلت مدرسة **الحوليات** والمجلة المعبرة عنها مركزا مهيمنا في حقل التاريخ الفرنسي. وحتى سنة *1968*، بقي فيرناند بروديل F.Braudel موجهها دون منازع، والمتحمل للجزء الأكبر من المسؤوليات: وبعد *1968* أحاط نفسه بهيئة تضم ج. ولوغوف J. Le Goff، وإ. لوروا لادوري E.Leroy Ladurie، وم.فيرو M.Ferro؛ وكتابة توالى عليها ر. ماندرو R. Mandrou، أ. بورغيير A. Burguière وج.ريفيل J. Revel. وخلال الستينيات والسبعينيات،

أصدرت المجلة ستة أعداد في السنة - حوالي *1500* صفحة - واحتلت الصدارة بين مجلات العلوم الإنسانية بفرنسا، ثم اتسع مجال أهميتها ليشمل أوربا الغربية والولايات المتحدة. ويكفي أن نقرأ "فهارسها" للتمييز بين مختلف توجهاتها. لقد ظلت **الحوليات** متعلقة بالتحليلات المنهجية (أمثلة: إ.لوروا لادوري : **التاريخ والمناخ**، العدد *1*، *1959*؛ ج.م. غويس J.M. Gouesse : **القرابة، الأسرة والزواج بنورماندىا**، العدد*5*، *1972*)، مفضلة الحوار بين التخصصات (أمثلة" **التاريخ والبنيات**، ع. خاص، *3*، *1971*؛ **التاريخ والعلوم**، عدد خاص، *5*، *1975*). إن **الحوليات**، التي أرادت لنفسها أن تكون متعددة التخصصات، قد فتحت أعمدة صفحاتها ليس للمؤرخين فقط (مثل: د.ريشيت D.Richet، [حالات] **النمو والتوقف بفرنسا من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر**، العدد *4*، *1968*). ولكن أيضا لعلماء الاجتماع (مثل: ب.بورديو P.Bourdieu، **استراتيجيات الزواج**، العدد *3*، *1972*)، والاقتصاديين (مثل: فورتادو C.Furtado : **التطور والركود بأمريكا اللاتينية** العدد *1*، *1966*). إن للحوليات ادعاءات تجميعية، وترغب في تغطية جميع فترات التاريخ وجميع مناطق العالم (أمثلة: ج. ڤيل G.Ville : **نهاية منازلات المصارعين بروما**، عدد *4*، *1979*؛ ر. تريكسليرR. Trexler ، **الراهبات بفلورانسا في نهاية العصر الوسيط**، العدد *6*، *1972*؛ ميلسكي C. Milsky : **إصلاح الكتابة بالصين قبل*1949***، العدد *2*، *1973*، الخ).

لقد اعتمدت مجموعة **الحوليات** على مؤسسة جامعية. ففي سنة *1947*، حصل ل.فيفر من حكومات التحرير على ترخيص بتأسيس شعبة سادسة داخل المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، متخصصة في «العلوم الاقتصادية والاجتماعية»؛ وقد ترأس هذه الشعبة وحدد أهدافها في: تأمين الربط الوثيق بين التعليم والبحث، ونشر المعارف في إطار الحلقات الدراسية، وتشجيع البحوث الميدانية الجماعية، وتنظيم لقاءات بين العلوم الإنسانية. وفي سنة *1956*، خلف ف. بروديل ل.فيفر، وحافظ على التوجهات السابقة. وفي نهاية الخمسينيات وخلال الستينيات، جمعت الشعبة السادسة بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا ثلاثين «مديرا للدراسات»: مؤرخين قريبين جدا من مجلة **الحوليات** - ج. لوغوف، وإ. لوروا لادوري، وف.فوري F.Furet، وم. فيرو - ومؤرخين أكثر حرية، اقتصاديين أو ديمغرافيين غالبا - مثل .إ. لابروسC. L. Labrousse، وج. موفريه.J Meuvret، وب. فيلار P. Vilar، - وعلماء اجتماع مثل فريدمان G. Friedmann أ.تورين A.Touraine - و"سيكولوجيون - مؤرخون" - مثل أ. بيزنسون A. Besanson، وم. دوسيرتو M. De Certeau. إن أغلب العلوم الإنسانية ممثلة مبدئيا؛ وفي الواقع، فإن التاريخ يحتكر الجزء الأكبر من المناصب. وذلك لأن التاريخ، حسب ف.بروديل، يمكن

أن «يقدم لغة مشتركة»، «يعطي البعد الأساسي للزمن»، و«يحافظ على وحدة العلوم الاجتماعية». وفي سنة *1968*، حقق ف.بروديل مشروعا عزيزا عنده: خلق دار علوم الإنسان La maison des Sciences de l'homme. لقد قبل نظام دوغول أن تستقر الشعبة السادسة بالمدرسة ت.د.ع. بعمارة شاسعة ـ *56*، شارع راسباي، باريس *7* ـ حيث جُمعت بالتدريج مختلف المراكز المختبرية التي كانت حتى ذلك الوقت موزعة في الحي اللاتيني. وقدمت د.ع.إ. تجهيزا ضخما، ضروريا للبحث، بما فيه المكاتب، وقاعات المحاضرات، ومكتبة، وآلات النسخ، وأجهزة الحاسوب، وبطبيعة الحال، الطاقم المكلف بتشغيل مختلف المصالح. بعد ذلك بوقت قصير تحولت م.ت.د.ع. إلى مدرسة للدراسات العليا للعلوم الاجتماعية. وقد حصلت هذه المؤسسة بعد ذلك على وضعية الجامعة؛ الشيئ الذي سهل عليها الحصول على القروض، وتسجيل الطلبة ومنح الشهادات.

وتتوفر مجموعة الحوليات على دعامات أخرى غير جامعية. وبالفعل، فإن لمسؤولي الحوليات حضورا كبيرا داخل دور النشر. فب. نورا P. Nora يدير «خزانة التواريخ»، عند غاليمار التي تختار أعمالا تجمع بين التاريخ والعلوم الانسانية الأخرى (أمثلة: إ.لوروا لادوري: **مونتيو** Montaillou؛ وم.فوكو: تاريخ **الجنون**). وكان ج.لوغوف وراء سلسلة «الاثنولوجيا التاريخية» عند فلاماريون، التي تعطي الامتياز لدراسة العادات، والأعراف والتقاليد (أمثلة: م. سيغالين M. Ségalen : **الزوج والزوجة في المجتمع القروي**؛ أ.بورغيير A. Burguière : **بريطانيو بلوزفيه** Bretans de Plozevet). أما ج.غوي J. Goy فيقود سلسلة «علم» (فرع التاريخ) عند فلاماريون، حيث ظهرت أطروحات كبرى بترجمات مختصرة (أمثلة: ب. غوبير: مئة ألف قروي خلال القرن السابع عشر: أ.كريجيل A. Kriegel، **جذور الشيوعية الفرنسية**). ويسير ب. نورا وج. رفيل سلسلة "ارشيفات... عند غاليمار حيث تتم معالجة كل تيمة على شكل تجميع للوثائق يقدمه مختص (أمثلة: دوبي G. Duby، **سنة ألف**؛ إتيامبل Etiemble، **اليسوعيون بالصين**؛ ج. روجري J. Rougerie، **محاكمات الكومونيين**). أما مجلة H. Histoire التي ظهرت سنة *1979* من طرف هاشيت Hachette، فتأمل اللجوء إلى التاريخ من أجل فهم أحسن للحاضر (أمثلة: العدد *3*: «اليهود بفرنسا»؛ العدد *4*: «الولايات المتحدة»)؛ وقد اشرف على هذا العمل فريق **الحوليات**، المهتم بألا يتخلى للمنافسين عن سوق مجلات التاريخ الموجهة إلى الجمهور الواسع. أضف إلى ذلك أن فريق **الحوليات** يحتل مواقع [مهمة] داخل "وسائل الأعلام". إنهم يقدمون تقارير عن كتب التاريخ في بعض الصحف اليومية والأسبوعية. ف. إ. لوروي لادورا و إ. تولد E. Told يبدون رأيهم على صفحات لوموند؛ ويعلق ف. فوري، ج.و.م. أوزوف J. et M. Ozouf بالنوفيل

أوبسرڤاتور Le Nouvel Observateur. أضف إلى ذلك أن ج. لوغوف ود. ريشيت يقدمان برنامجا إذاعيا **"إثنين التاريخ"** Les Lundis de l'histoire" - حيث يدعى مؤرخون لتقديم أعمالهم. أما بالتلفزيون، فإن ممثلي **الحوليات** لا يسيرون أي برنامج، ولكنهم يظهرون بكثرة خلال المناقشات التاريخية، السياسية أو الأدبية. وكما يقول ج. شيسنو J. Chesneau فإن تكتل الحوليات هو أحد مراكز السلطة الفكرية بفرنسا.

وفي بداية السبعينيات، قسم ف. بروديل إرثه بين خلفه، خصوصا ج. لوغوف وإ. لوروا لادوري. وقد كلف الفريق الجديد بوضع جرد تقييمي بمناسبة الذكرى الخمسينية للحوليات. ففي سنة *1974* جمع ج. لوغوف وب. نورا، تحت عنوان **صناعة التاريخ،** ثلاث مجموعات من المقالات تطرح "مشاكل جديدة"، تضع الخطوط العريضة «لمقاربات جديدة»، تحدد «مواضيع جديدة». وفي سنة *1978*، نشر لوغوف موسوعة تحت عنوان **التاريخ الجديد،** حيث يوجد خليط من مقالات تتعلق بالأسس (حول مفهوم البنية، المدة الطويلة، التاريخ المباشر، الخ)، ونقط حول بعض الأسماء (هـ. بير H. Berr. ج. دوميزيل G. Dumézil. ف. سيمياند، الخ)، ونقط حول مصطلحات (المناخ، اللغة، التحليل النفسي، الخ). وفي كلا المشروعين نجد تقريبا نفس المساهمين: ف.أرييس PH Ariès. ج.ب. آرون J. P. Aron. أ.بورغيير A. Burguière. م. دو سيرتو M. de Certeau. ر. شارتييه R. Chartier. م. فيرو. ف. فوري. د.جوليا D. Julia. ج.لوغوف. ب. نورا. ج. ريفيل. د. دروش D. Droch. أ. شناب A. Schnapp. ج. شميت J. C. Schmitt. ب. فيدال ناكيه P. Vidal - Naquet. م . ڤوڤيل M.Vovelle وبعض آخرين .

إن إنتاج هذه الكوكبة من المؤرخين، رغم كثرته، بعيد عن أن يشمل حقل التاريخ كله. فعلا، وربما بسبب التوجهات الأولى لل. فيفر، وف. بروديل، فإن مدرسة **الحوليات** تهتم أولا بأوروبا الغربية والأقطار الخاضعة لها، من بداية العصر الوسيط حتى عصر الأنوار. إن إ. لوروا لادوري، وهو يقدم لائحة للانتاج التاريخي الحديث العهد، على طريقة "توزيع الجوائز" التي تحلو له، لم يتجاوز ذكر المتخصصين في العصر الحديث (التاريخ، العدد *2*، يونيه *1978*). وبمدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية، يرافق هيمنة المختصين في العصور الحديثة(1) وبعض المختصين في العصر الوسيط، **إقصاء** شبه تام للمهتمين بالعصور القديمة والمهتمين بالزمن المعاصر. خارج دائرة **الحوليات** إذن تبلورت أغلب الدراسات المتعلقة بالعصور القديمة (مدرسة أثينا أو مدرسة روما مثلا) وأنجزت أغلب البحوث الميدانية حول العالم المعاصر (كما في مؤسسة العلوم السياسية Fondation des Sciences Politiques ، أو في معهد الزمن الحاضر Institut du Temps présent مثلا). أضف إلى ذلك أنه توجد بفرنسا ثلاثون وحدة للتعليم والبحث UER، مديريات

ومختبرات حيث يشتغل عدة مئات من المؤرخين المحترفين. إن مجرد وجود هؤلاء يذكرنا بأن م.د.ع.ع.إ.، ليست في نهاية المطاف سوى مركز للبحث من بين مراكز أخرى، ولكنها تتمتع بما يسميه فرانسوا فوريه، دون تواضع، «سلطة الشهرة».

2 ـ تقديس الأسلاف

لاشئ يحدد اتجاها فكريا أكثر من النصوص المقدسة التي يستوحيها. إن هذا التيار الطلائعي، وبشكل مفارق، يحس بحاجة إلى أن يمنح لنفسه سلالة مجيدة، وأن يبلور صيغة شبه أسطورية لجذوره، مع تخصيص تقديس حقيقي للآباء المؤسسين. من بين كبار الأسلاف المقدسين من جاك لوغوف، («التاريخ الجديد» ضمن [كتاب] التاريخ الجديد، ص. *210 ـ 241*) لا يفاجئنا وجود ڤولتير [كاتب] بحث في العادات، ولا ميشليه Michelet [صاحب] المقدمة، سنة *1869*، والذي يتم استيحاؤه بشكل شبه طقوسي، بدافع الحنين، بالتأكيد، إلى تاريخ كلي لم تعد كتابته ممكنة الآن، ولكننا سنفاجأ أكثر حين نجد شاتوبريان، المهتم جدا، في كتابات تاريخية، باستحضار جميع مظاهر اليومي، وگيزو Guizot، المحلل الثاقب الذهن لظاهرة الحضارة Le fait de civilisation.

أما أسطورة الأصل، فتتمثل في تخليد سنة *1929* هاته، المعروفة حتى ذلك الوقت بذات جمعة سوداء، حيث جاء تأسيس **حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي** ليفتح حقلا جديدا أمام التاريخ، تحطم فيه الحواجز بين الوقائع ذات الطبيعة المختلفة، وتنتصر فيه نزعة المقارنة. لنكن منصفين: إن دين بلوخ وفيفر إزاء أسلافهم (بير Berr، بيرين Pirenne وسيمياند Simiand) يشار إليه دائما. ولكن هذا لم يمنع أن تبدأ، سنة *1929*، مواجهة أنصار التاريخ التاريخاني، وبعض "الوضعيين" المتأخرين، بمآثر الآباء المؤسسين. و[شهدت] سنة *1946* ثورة داخل الثورة. [حيث] غيرت المجلة ـ القطب في التاريخ الفرنسي تسميتها وأصبحت تسمى **الحوليات Annales ESC**. وأكتشف لوسيان، فيفر وريثه الشرعي، فيرناد بروديل، الذي كان عليه أن يقارع عمداء التاريخ الجامعي داخل ذلك الحقل المغلق، أي لجنة التبريز في التاريخ، ما بين *1950* و*1955*. وتمر الأعوام، ويرى فيرناد بروديل بنفسه أتباعه يكبرون: إيمانويل لوروا لادوري، جاك لوغوف، ومارك فيرو.

إن لهذه السلالة الثقافية ـ السلطوية intellocratique عدة وظائف. إنها تضفي المشروعية أولا، حيث تجعل من فئة ضيقة من المؤرخين أمناء على روح **الحوليات الأولى**. فبعد جاك لوغوف، وإيمانويل لوروا لادوري وجورج دوبي Georges Duby، جاء اندريه بورغيير André Burguière، وروجيه شارتيه، وجاك ريڤيل، وجان ـ كلود شميث... إن هذه السلالة تشكل حجة ذات وزن داخل التعايش الصراعي مع مجالات علم التاريخ الأخرى. إن الاستشهاد بأسلاف يقدسهم الجميع يسمح بتجنب مواجهات ضارية. ألا

يقول لنا جاك لوغوف، بما عرف به من روح توفيقية، إن التاريخ الجديد يعتمد على **تقليد قديم وصلب، وأن جزءا من المكتسبات التقنية في المنهج الوضعي يبقى صالحا؟** ألا يرفع من شأن **المتاع الصلب** للمؤرخين المحترفين، وشأن الأساس المؤسسي الصارم لهذا الفرع المعرفي؟ بهذا تتم طمأنة عمداء المؤسسة التاريخية!.

إن التاريخ الجديد قد «خاصم نهائيا الموجات [التجديدية]»، في سياق بحثه عن التجميع/التوحيد بدل الاختلاف، وهو بحث مفهوم من طرف اتجاه فكري ضمن لنفسه وضعية مهيمنة. لقد استسلم هذا الاتجاه بكسل لتقديس الشخصية، كما حدث لروسيا مع برجنيف. ففي مقال مثير ومتطرف ("ترنيمة نافرة" "Allergico cantabile"، الحوليات ESC، *1981*، ص *623* وما بعدها)، سرد ميشيل مورينو بالتفصيل خيبته المريرة حينما تجرأ على الاعتراض على حالات الإيمان الأعمى الكثيرة ب«القديسين سيمياند وهاميلتون» في موقفهما من تموين أوربا الحديثة بالمعادن الثمينة. يقول محتجا «إننا لا نجرؤ حتى على رصد أخطاء سيمياند، ونتعامى بنفس الدرجة عن الأخطاء الكبرى (التي ينعتها صراحة بالفداحة)، التي لا تخلو منها دراسات أقرب عهدا» ثم تأتي الإدانة النهائية: «إنني أدين عددا من الأخطاء الخطيرة التي تسربت إلى عدة مجالات أساسية في تاريخ الاقتصاد الحديث؛ وأدين التسامح الذي نعمت به لا لشيء إلا لمكانة كاتبيها.. وأدين غزو تقديس الشخصية في [مجال] التاريخ...» ولكي نكون فكرة عن المأخذ الأخير، يكفي أن نقوم بإحصاء سريع للإحالات على عمل فيرناند بروديل ضمن [كتاب] التاريخ الجديد. وقليلون هم الأعضاء الذين لم يطروا كاتب البحر المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليب II . وقد فهم طلاب إحدى جامعات الضواحي الدرس بسرعة، سنة *1978*: لقد قدسوا فيرناند بروديل عفويا، ووضعوا صورته على خزانتهم، ووجهوا إليه توسلات ملحة ("أيها القديس فيرناند، يا سيد التاريخ الجديد، اسمح لي أن اجتاز امتحاني في الابستمولوجيا دون عراقل») وقدموا إليه نذورا مؤثرة (بطاقات بريدية، كتب موجزة في التاريخ. كراسات، الخ) كاعتراف بالجميل.

لنحاول أن نكون منصفين إزاء الصيغة المثالية التي يعطيها اتجاه الحوليات لبداياته وانتصاراته. إن التضخيم الملحمي يمكن أن يفهمه أولئك الذين كانوا دائما في مقدمة المواجهة، مثل جاك لوغوف، مع المجالات الأكثر محافظة في ميدان التاريخ. وفي المقابل، فإن الرضى عن الذات والاستشهاد المستمر ببعض الأسماء الكبرى لا يمكن إلا أن يصدم عددا من الباحثين الذين لا يمكنهم الدخول إلى هرم الاستحقاقات المختار هذا، والذين يرفضون أن يروا تخصصهم المحترم يتحول إلى نظام - نجم star system. هذا، وإن **الوريثين** أندريه بورغيير وجاك ريڤيل يبرهنان على موضوعية شجاعة، في المقالين المشار إليهما أعلاه. لقد ذهب الأول إلى حد القول بأن مارك بلوخ ولوسيان فيفر ينتميان هما

أيضا إلى **المؤسسة الجامعية**، وأن أصالتهما، في نهاية المطاف، تكمن في «طريقة تأكيد برنامجهما أكثر مما تكمن في البرنامج نفسه». ومهما كان رأي ميشيل مورينو، فإن الزملاء لا ينقادون دائما، ليصرخوا في وجه الحقائق المزعجة: "حطموا الصنم».

3 ـ لا المسيح، لا ماو ولا توينبي: قليل من ماركس وأقصى حد ممكن من العلم:

إن المؤرخين الجدد يحتاطون من الاختيارات الايديولوجية الواضحة، بعدما كان بعضهم احتك بالماركسية بعض الوقت، وناضل في صفوف الحزب الشيوعي، إنهم، في هذا الميدان، يسيرون على خطى الأسلاف المؤسسين، الذين يحتاطون دائما من صياغة أنساق اختزالية، لأنهم كانوا يعون التداخل الكبير للظواهر الاجتماعية وتعدد العلاقات المتبادلة بين مختلف مستويات الواقع. ألم يعلن مارك بلوخ عن مفاجأته بالنتائج الاقتصادية للظواهر الدينية أكثر مما فوجئ بما ينطوي عليه الديني من عناصر اقتصادية؟ ويحتاط زملاؤه أيضا من أي حتمية صارمة، بل ومن أي "قرار في آخر التحليل": إنهم يحبون التفسيرات المتعددة، العلاقات المتبادلة الجدلية بين مختلف مستويات الواقع، والكشف عن الشفرات المتعددة التي تنظم الحياة الاجتماعية...

نتيجة لذلك، فإن الفلسفات الشمولية، التي تدعي صياغة معنى التاريخ، لا تحظى البتة باهتمام **الحوليات**. ويشمل هذا الإهمال أيضا لاهوت التاريخ، بما فيه الأعمال المعاصرة ل هـ.إ. مارو H. I. Marrou وب. ريكور P. Ricoeur، كما يشمل التأويلات الكبرى لمستقبل الإنسانية، والتي اقترحها ڤيكو Vico، وهيجل، وكروتشي Croce وتوينبي(الذي لم يبرئ ذمته من التقرير القاتل الذي كتبه عنه لوسيان فيفر، والذي يتهمه فيه بالرؤية الانتقائية للماضي، وبضبابية المعلومات) ويشمل أيضا الماركسية الدوغمائية المرفوضة بسبب نظرتها الخطية والغائية للتاريخ. إنها دون شك "أكثر الرؤى التركيبية للتاريخ شمولية وانسجاما"، على حد تعبير لوغوف ونورا في مقدمة كتاب ممارسة التاريخ faire de l'histoire، ولكن تصوراتها الأساسية(الايديولوجيا كانعكاس للواقع، التفسير بالعامل الاقتصادي في نهاية المطاف) لم تعد تصمد جيدا أمام الانجازات الحديثة في مجال العلوم الانسانية.

[هكذا] إذن، يهمل كل ميل إلى النسق، وينادى بأولوية الإجراء العلمي على الاختيارات الفلسفية، دون السقوط في علموية لم تعد مسايرة للعصر، يراد للمؤرخ أن يصبح شبيها بالعلماء الكبار، حتى وإن «لم يكن قادرا (بعدُ؟) على أن يصبح اينشتين»، وأن يتحمل دائما، خاصة في الصحف والمجلات ووسائل إعلامية أخرى، تواجد مبتذلين من الدرجة الدنيا» (لوغوف، نورا).

على غرار الفيزيائي أوعالم الطبيعة، يجب على المؤرخ أن يقوم بوضع الفرضيات،

ويختبرها، وعلى ضوء ذلك يدخل عليها التعديلات اللازمة، ذلك أنه لا وجود لوقائع تاريخية في ذاتها، والتي يكفي أن نستخرجها من الوثائق، ونصلها بوقائع أخرى للحصول على متتالية كرونولوجية «طبيعية»، ولكن هناك «المخترع المصنوع عن طريق الفرضيات والتخمينات، وبواسطة عمل دقيق وممتع»، كما ورد في إحدى سور لوسيان فيفر. فعلى غرار أمثاله في الفروع المعرفية الأخرى، يقوم المؤرخ ببناء موضوع تحليله عن طريق تكوين متن من الوثائق ذات طبيعة مختلفة (نصوص مكتوبة، اشياء، صور، رسوم، استجوابات، الخ)، بهدف الإجابة عن سؤال مطروح قبلا (هل حدث الغزو الدوري Dorien فعلا؟ متى نشأ الإيمان بالمطهر Purgatoire؟ هل الاحساس بالطفولة معطى طبيعي أم مكسب ثقافي في الأزمنة الحديثة؟ الخ.). إنه **التاريخ - المشاكل**، عمل محلل، وليس عمل سارد أو نبي، فعلى ضوء السؤال المطروح، يعمل المؤرخ على اقتراح تأويل عقلاني للمعطيات (التي سبق له أن جانس بينها homogeneiser)، والتي يقدمها له المتن الذي كونه. إنه "يبلور مادة معقولة انطلاقا من الوثائق" كما يقول ميشيل دو سيرتو Michel de Certeau، الخبير في هذا الميدان.

في بحثه عن هذا المعقول، يلجأ المؤرخ إلى تقنيات دقيقة لا يمكنها إلا أن تسهل عليه الوصول إلى الوضع الذي طالما تمناه! وضع رجل العلم. إن قائمة العلوم المساعدة التي يستخدمها قد طالت منذ لانجلوا وسينيوبوس، بل ومنذ *1929*: علم أعمار الأشجار، ودراسة البذور الأثرية pollens fossiles، والتأريخ بالكاربون الإشعاعي، والأركيولوجيا الجوية، ومعالجة المعطيات بالحاسوب، والتحليل الآلي للخطاب؛ لاشيء مستحيل بالنسبة للمؤرخ الجديد!! فمنذ *1950*، أصبحت الحوليات تعج بالسلسلات المرموزة. ولا يهم إن كانت تحمل بعض الأخطاء: «رموز chiffres خاطئة، منحنيات صحيحة». خلال السبعينات، أصبح الحاسوب مصدر إغراء، وأصبح بعض المحدثين الأكثر نبوغا يستسلمون لسحر **تاريخ الاقتصاد الجديد**، New Economic History ، الذي يقوم صاحباه، فوجيل Fogel وانجرمان Engerman، بإرجاع التطور الاقتصادي ماضيا، إلى نماذج افتراضية - استنتاجية، ويلجآن، من أجل اختبارها، إلى فرضيات ضد - وقائعية. Contre - factuelles . ألا يجب، من أجل تحديد الأثر الاقتصادي لتجديد معين، مثلا، أن نخلق نموذجا لمجتمع بدون هذا التجديد، ثم نقيس الاختلافات التي نلاحظها؟ إن عمل آلهة التاريخ - الشعراء cliométriciens [هؤلاء] يصب في الخيال - التاريخي Histoire - Fiction، ويصل بهم إلى حد تخيل الولايات المتحدة بدون سكك حديدية (ويخبروننا أنها لم تكن ضرورية للنمو)، وتخيل جنوبها بدون عبيد (وهؤلاء يشكلون "استثمارا مربحا جدا"). إن هذه الاستنتاجات، التي كانت تقدم حتى وقت قريب كحقائق موضوعية باعتبارها مبنية على أرقام، قد أصبح ينظر إليها اليوم بعين

الارتياب. فلوغوف ونورا يحتاطان من سلطة الحاسوب المطلقة، ويلحان على «خطورة الخضوع للحساب». إلا أن هذا لم يمنع البتة، التحليل العاملي factorielle من أن يكون في حالة جيدة على صفحات **الحوليات**: وكشاهد على ذلك، مثلا، المقال الأخير ل.هـ. ميللي H. Millet «تركيبة جمعية أساقفة لاون : تحليل عاملي» (يناير، فبراير، *1981*).

حافظ التاريخ الجديد على بعض الإسهامات العلمية التي قدمتها الماركسية، رغم رفضه لمظاهرها الفلسفية. وقد تم الاعتراف بدين ماركس سواء من طرف ف. بروديل الذي يرى أن مؤلف «رأس المال» كان أول من وضع «نماذج اجتماعية حقيقية»، إجرائية على مدى بعيد، أو من طرف ج. لوغوف الذي يرى أن ماركس هو أب التحقيبات الواسعة والتحليل البنائي لما هو اجتماعي ويعتبر هذا الدين أكبر من ذلك في عين المؤرخين الماركسيين. فبيير فيلارPierre VILAR يرى أن الفضل الأساسي لسيمياند وفيفر وبلوخ يكمن في عودتهم الى الدروس الأساسية لماركس (تاريخ في طور البناءUne histoire en construction ص. *333* وما يليها). أما جي بوا Guy BOIS فيقول صراحة في مقالة «الماركسية والتاريخ الجديد» (ضمن [كتاب] التاريخ الجديد، ص. *375* وما بعدها) إن الأطروحات المركزية والسمات الرئيسية للتاريخ الجديد توجد نواتها في الماركسية. فالتاريخ الشمولي ليس في نظره، إلا إشارة جديدة لنمط الإنتاج أو التشكل الاقتصادي والاجتماعي، وهي مصطلحات ماركسية تشير الى الكليات الاجتماعية المتمفصلة. أما المناهج الكمية، فقد طبقها ماركس من قبل. ولقد كان أيضا يولي أهمية للبنيات العميقة وسلوكات الناس العاديين على حساب الوقائع البارزة وإنجازات الشخصيات المتميزة... ويضيف Guy BOIS ، أن الماركسية تمارس منذ أمد بعيد **تأثيرا غير مباشر وواسع الانتشار** على المؤرخين الفرنسيين، ويمكن رصد هذا التأثير في المكانة الأساسية التي اعترف بها للتاريخ الاقتصادي خلال الخمسينات، وفي الالحاح على العلاقات بين الطبقات وعلى الملكية المتفاوتة للمنتوج الاجتماعي، كما يبدو جليا من خلال مؤلف إرنست لابروس Ernest LABROUSSE ويزداد هذا التأثير قوة في الوقت الحاضر، حيث لم يعد مقتصرا على المستوى الاقتصادي ـ الاجتماعي، بل غزا مستويات الواقع الأخرى، وشمل تحليل كلية السلوكات الإنسانية. إن المفاهيم المركزية للماركسية (خاصة مفهومي نمط الإنتاج، والإيديولوجيا) تستخدم ضمنيا في أعمال كبرى كتبت مؤخرا، رغم أنها لا تتبنى المصطلحات الماكسية الكلاسيكية، ورغم الحذر من أي إحالة علنية على المادية الجدلية. إن هناك حقا التقاء بين التيارين الكبيرين للأعمال التاريخية المعاصرة، الشيء الذي لا يمنع البتة المؤرخين الماركسيين من أن يستمروا في لعب دور أصيل (في تحليل الخطاب أو في التاريخ الكمي للعقليات، مثلا)، ولا يضع البتة حدا لجملة من القضايا التي تحتفظ بكل ثقلها. ذلك أن بعض ممارسات التاريخ الجديد تشكل،

في نظر الماركسيين، كمينا، كما يقول جي بوا.ألا تهدد الإحصائية المبجلة بإعطاء امتياز للوقائع الاجتماعية التي تطفو على السطح (مثل المعطيات الديمغرافية) على حساب وقائع أخرى على نفس الدرجة من الأهمية، وتبقى خفية (مثل ميكانيزمات فائض القيمة)؟ والدراسات المتتالية حول السلسلات (الكتاب خلال القرن *18*، النذور البحرية يونان، مذابح الأرواح بالمطهر من القرن *15* إلى القرن *20*). ألا تهدد بتفتيت الواقع التاريخي، وتفجير زوايا الرؤية، وفي الأخير تمنع الرجوع الى التصور الموحد لنمط الإنتاج؟ والمكانة الممنوحة للأعماق الذهنية، والتي تحتل أحيانا وضعية البنى التحتية الحاسمة لدى المؤرخين الجدد، ألا تشوش على مبادئ التفسير الماركسية، وتؤدي الى ضياع أسبقية علاقات الإنتاج؟ وأخيرا ألا تمثل العلوم الجديدة مظهرا لأسلحة المواجهة الماركسية، كما هو الشأن بالنسبة للأثنو - تاريخ، الذي يؤكد على اللاوعي الجماعي، والميل الى الاجتماع، وسلوكات أخرى دائمة لدى الجماعات البشرية، الشيء الذي يؤدي الى الانتقاص من قيمة التفسير بواسطة العلاقات بين الطبقات، وذلك حينما يلوح بعلاقات القرابة في وجه علاقات الإنتاج؟ وقد عبر جي بوا عن موقفه من هذه الأخطار، فدعا الماركسيين الحقيقيين الى رفع تحدي التاريخ الجديد، وذلك عن طريق برهنتهم على إخلاصهم المطلق للتصورات المركزية الماركسية، التي تسمح وحدها، في نظره، بالتفكير في الماضي بشكل منسجم، كلي وديناميكي.

4 - تحولات الشمولي :

هذا المفهوم المفتاح، إن لم نقل هذا المصطلح السحري في التاريخ الجديد، مثل ولازال يمثل أوجها مختلفة، بل وتكاد تكون متعارضة.

لقد بحث التاريخ الجديد دائما على القبض عن الفضاءات الواسعة والكتل التاريخية الكبيرة، وذلك إخلاصا منه لفولتير وميشليه دون شك، ولكن أيضا، بتأثير من المدرسة الجغرافية الفرنسية والجيو - تاريخ لدى بروديل. وكشاهد على ذلك، المكانة الأساسية الممنوحة ضمن **الحوليات** للخرائط التاريخية التي تجسد الظواهر الضخمة ذات المدة الطويلة. وهي ليست [خرائط] وصفية فقط، بل تسمح بطرح أسئلة جديدة، والعمل على تطوير تأويل الظواهر. وعن صواب، وضع المؤرخ الهولندي و. دين بور W. Den Boer من بين العناصر التي تشكل نموذج الحوليات كون «إحصاء وسيميولوجيا الخطاطات يعوض النقد الفيلولوجي للنصوص، وبشكل أقل عمقا أحيانا». إن هذه الفكرة الأخيرة، القليلة التهذيب، لا تعطي اعتبارا لكون الخرائط الإحصائية تؤدي غالبا وظيفة تجسيد مضمون الوثائق، وبسطه (بالمعنى الحرفي للكلمة)، قبل الوصول الى مرحلة التأويل. أنظر، لتقتنع بذلك، دراسة إيمانويل لوروا لادوري، «الاستغلال الكمي والخرائطي للأرشيفات العسكرية الفرنسية (*1819* - *1826*)»، ضمن [كتاب] مملكة المؤرخ Le

territoire de l'historien، غاليمار، 1977، ص. 88-33، وتقدم هذه الأرشيفات المعلومات التالية حول المجندين : المهنة، القامة، العاهات الفيزيولوجية، التمدرس، ميل محتمل للرهبنة. وهذه مجموعة ثمينة [من المعلومات]، الى حد أنه لا توجد بعد في هذا العصر إحصائيات وطنية دقيقة [مثلها] إلا في بعض القطاعات. ومن هنا إمكانية دراسة أنتروبولوجية مقارنة للمجندين الفرنسيين، حسب أصلهم، بواسطة معالجة المعطيات، ووضع صور خرائطية، بمساعدة الحاسوب، فنحن نعرف مثلا أن النخبة (الشباب المتخرج من المدارس الكبرى، أعضاء [هيئة] التعليم...) يتمركزون أساسا في الشمال الشرقي، أي فرنسا المتطورة والمتعلمة. أما طلبة الكنائس، فيتمركزون خاصة في بروطاني، في المناطق الفقيرة والجبلية بالجنوب (البرانس، المرتفعات الوسطى، الألب) وبالشرق، أي ما تعلنه خريطة الممارسة الدينية بالقرن العشرين (انظر الخرائط، ص. 65 ـ 66). وإذا نظرنا الى قامات المجندين، نجد أن القامات الكبرى تتمركز بالشمال الشرقي، ضمن محور سان مالو ـ جنيف، بينما نجد القامات الصغرى بمناطق الغرب، الوسط والجنوب (الخريطة، ص. 69) وإذا أدخلنا في الاعتبار المقاييس الأخرى (التوزيع السوسيو ـ مهني، بين مقاييس أخرى) يبدو لنا التناقض بين فرنسيان [مثنى فرنسا] : فالعوامل المرتبطة بالتطور والتحديث تتمركز بالشمال، وفي المقابل، فإن سمات «التخلف» والعتاقة أحيانا تتجمع بالجنوب، والوسط والغرب (أنظر ص. 87 : خريطة الشباب الأمي). إن هذه النتائج دالة في ذاتها، ولكنها تفتح الطريق، خصوصا، أمام علاقات متعددة مع معطيات أخرى جمعها المؤرخون الاجتماعيون خلال القرن 19.

أما الاهتمام بالعامة، فقد ظهر أولا ضمن تطور الديمغرافيا التاريخية، التي تم تحليل إنتاجاتها بالفصل السابع، إنه، حسب فرانسوا فوري F. Furet، الانتاج الوحيد الصارم ضمن التاريخ الجديد، الذي عرف كيف يذوب «في قالب فرع معرفي آخر، دون أن يعدل موضوعات، وتصورات ولا إجراءات بحث هذا الأخير». وفي المقابل فإن هذا الاهتمام بالعامة، يعبر عن تحفظ أكثر إزاء التاريخ السوسيولوجي، حيث يرى أن المؤرخ لا يقتبس نظاما صارما من التصورات، ولكن يقتبس فقط توجها لفضوله، يؤدي به الى الاهتمام بالإنسان العادي (الطبيب، الراهب، المدرس)، وتحليل اشتغال تنظيمات العامة (انظر أطروحة انطوان بروست A. Prost حول **قدماء المحاربين** 1914 ـ 1940). إن النداء الذي وجهه خلال القرن الماضي كل من ميشليه، وأوغست كونت وتابعه بوردو Bourdeau الذي كثيرا ما ينسى، والداعي الى الاهتمام بمغموري التاريخ، قد وجد صداه لدى **الحوليات** وأتباعها.

ويتجلى النزوع الى الشمولية أيضا في اهتمام بروديل بالعودة الى مختلف فترات الزمن التاريخي، و«إعادة جمعها» في زمن واحد. [وذلك] لأن التمييز الشهير بين المدد

[الزمنية] الثلاث (انظر الفصل 7) يتطابق فعلا مع ثلاث مستويات متتالية للملاحظة. بعد ذلك يجب إبراز التداخل بين هذه المدد داخل ظرف وحيد، [هو] «زمن العالم القاهر». وقد احتفظ من ذلك اتباع بروديل بأسبقية المدة الطويلة، الى حد أنهم تصوروا [وجود] **تاريخ ثابت** (هو بالمناسبة تاريخ فرنسا القروي بين *1300* و*1720*)، وأهملوا التاريخ المعاصر الصاخب، والذي كان يحظى باهتمام كبير في **الحوليات** الأولى، حيث خصص له ما بين ثلث ونصف المقالات. لنسجل في هذا الصدد أن موضوعا مثل الثورة الفرنسية الكلاسيكي ضمن الإنتاج التاريخي الوطني كنموذج لسرد «يجمع بين التحول والتطور» (ف. فوري (F. Furet)، وكموضوع يعتبر كلاسيكيا ضمن الإنتاج التاريخي الوطني، هو موضوع يكاد يكون مجهولا تماما من طرف المؤرخين الجدد.

وقد اهتم هؤلاء أيضا بالتحليل الشمولي لمجموعات واسعة، منسجمة في تنظيمها الاجتماعي والاقتصادي، ومتوجة بنظام منسجم من الأشكال الممثلة لها. وتتحدد هذه «الكليات المتصورة» بوجود عامل وحيد مؤثر وعميق، ووجود مناخ عام، كما هو الشأن بالنسبة **لحضارة الغرب القروسطي** التي وصفها جاك لوغوف كمسيحية ينظم فيها الدين مجمل الحياة الاجتماعية، بما في ذلك الممارسات الاقتصادية وإدراك العالم. وينتمي **زمن الكاتدرائيات** لجورج دوبي G. Duby و**حضارة النهضة** لجون دوليمو J. Dulmeau أيضا لنفس التصور الشمولي للمادة التاريخية، إنها بناءات جميلة، وكليات ثقافية مغرية، ولكنها بناءات هشة بالضرورة، وأطر ضيقة بالنسبة لواقع متعدد! ثم إن المؤرخين الجدد، ودون تخليهم عن طلب الشمولية، قد رغبوا في الوصول اليها على أساس فضاء ضيق، وفي إطار دراسات إقليمية. إن كتاب بيير غوبير [حول منطقة] «البوفيسيس»، «حيث تتم دراسة وتقديم كل ما يتعلق بمجتمع»، قد أنجب أطفالا : «الأنجو» للوبران Lebrun، و«لاتيوم» لتوبيرToubert، و«البيكاردي» لفوسييFossier، و«بريطانيا» لألان كروا A. Croix . إنها صلاة مقدسة يرددها بخشوع طلبة السنة الثانية [من التعليم العالي]. وبما أنه كان يجب التقدم باستمرار في التحليل، فإن البحث اللانهائي عن الشمولي قد مورس بعد ذلك على مستوى المونوغرافيا الحضرية أو القروية، مع اللجوء أحيانا الى عدة فرق متخصصة (إن بريطانيي [منطقة] بولزيفا قد تمت معاينتهم من الخلف، ومن الأمام ومن الجانب، تحت إشراف أندريه بورغيير)، مع الجمع أحيانا بين عدة مقاربات للوثيقة الواحدة (لاستخلاص جوهر التصريحات التي قدمها سكان مونطايو أمام المحقق، يصبح لوروا لادوري على التوالي جغرافيا، ديمغرافيا، لسانيا، إثنولوجيا، في استعراض مذهل). ويدل مصطلح الانتروبولوجيا التاريخية، الذي يستعمل بشكل متزايد على هذا النزوع إلى التقاط أناس الماضي في مجموع محيطهم، سواء

البيئي، التكنولوجي، العاطفي، الرمزي، الخ. إن مثل هذه المهمة لا يمكن أن تقاد بنجاح إلا على أساس فضاء ضيق.

هناك اتجاه آخر في التاريخ الشمولي، تحدد أيضا بالإحالة على الواقعة الاجتماعية الكلية، حسب مارسيل موس M. Mauss، ولنفهم من ذلك واقعة اجتماعية خاصة تحيل على مجموع نظام ما، وتحتوي على بنياته العميقة. وقد ازدهرت تواريخ تتعلق بوضوح ببعض القطاعات، وتحيل في الواقع على «كل ما يتعلق بمجتمع معين» وتستحضر فرضيات واسعة جدا : هكذا يعتبر l'evergétisme اليوناني والروماني، الذي يحلله پول فاين P. Veyne في [كتابه] "Le pain et le cirque"، مرتبطا جدا بنمط ترويج الثروات في المجتمع القديم، ويمثل شكلا لإعادة توزيع جزء من فائض الانتاج الذي تستحوذ عليه الطبقة المهيمنة، وعلى غرار پول فاين، حدد مؤرخون آخرون مواضيع شاملة لبحث، تمثل نقط التقاء لعدد من الظواهر الاجتماعية، مثل l'incastellamento لدى سكان القرى الوسطى بإيطاليا خلال بداية القرن *11*، والتي درسها پ. توبير (انظر الفصل *9*).

في نفس الوقت، يحتاط بعض المؤرخين الجدد من تبني منظور شمولي، ويتكفلون بالكشف عن انسجام سلسلات وثائقية ممتدة على مدى زمني طويل، مثل سميث J. C. Smith الذي حلل في «السلوقي المقدس» استمرارية وتغيرات تقديس الكلب غينفور Guinfort من القرن *13* الى القرن *20*، بإحدى المقاطعات البعيدة بمنطقة دومب.، حيث يتبين أن للممارسات الخرافية زمنيتها الخاصة، الصلبة بشكل مدهش، والمستقلة بشكل واسع عن التحولات والاضطرابات التي تمس المستويين الاقتصادي والسياسي. وقد دفع مؤرخون شباب إراديا بصيغة إرنست لابروس الى حدودها القصوى . «إن الاجتماعي يتخلف عن الاقتصادي، والذهني يتخلف عن الاجتماعي». هذا التصور الجديد للواقعة التاريخية نظمه فرانسوا فوري، في مقال يحمل عنوان «التاريخ الكمي وبناء الواقعة التاريخية» (ضمن : **صناعة التاريخ**، I ، ص. *42 ـ 62*)، يمكن أن نرى فيه نوعا من البيان المتعلق بتاريخ السلسلات. هذا التاريخ الذي يمكن تعريفه كصياغة تصورات للماضي، وهو يجهد نفسه ليشكل الواقعة التاريخية في سلسلات زمنية من الوحدات المنسجمة والقابلة للمقارنة، فيستطيع بذلك قياس تطورها بواسطة فواصل زمنية معطاة، غالبا ما تكون سنوية». بعيدا عن الاقتصار على الحدث الفريد، كما يفعل التاريخ التاريخاني، فإن هذا التاريخ يتعلق «بالتكرار المنتظم لمعطيات مختارة ومبنية على أساس سمتها القابلة للمقارنة. هكذا يتم تفكيك الواقع التاريخي الى أنظمة فرعية، يمكن أن نضع بينها فيما بعد تمفصلات إلا أنه لا يتم البحث في البداية عن دراسة مجموع الكتلة الوثائقية التي تهم جميع مظاهر الواقع في مرحلة معينة، ولا عن وضع نظام شامل للتأويل. ونتيجة لذلك فإن مشكل الأصول يطرح بعبارات جديدة : ولا تبقى العلاقة بين

الوثائق والواقع هي المهمة، وإنما يهم أكثر من ذلك العلاقة النسبية القائمة بين الوثائق بعضها بعضا، داخل سلسلات وثائقية يشكلها الباحث بطريقة تجعل معطياتها قابلة للمقارنة. وسواء أكان مصدر هذه الوثائق هو القوائم الضريبية، أم سجلات الرهبان، أم دفاتر الشكاوى فإنها، عموما «تختزل الى لغة قابلة للبرمجة»، ويمكن أن تستعمل بطريقة استبدالية : يجب أن يعرف [الباحث] مثلا، كيف ينتقل من منحنى الأثمان الى تحليل ظرف اقتصادي، أو من تطور ثمن الكراء الى تطور السكان. وهذا نفي لـ «المرونة الخارقة» للمصادر التاريخية وتعدد المعلومات التي يمكن أن تنقلها الينا.

ضمن كل هذا، فالعلاقة بين المؤرخ والوقائع هي التي تغيرت بشكل جذري. ففي حين أن التاريخ الحدثي كان يرتكز على الفريد، الشيء الذي كان يعني **المدى القصير، والغائية** (فقد كان التاريخ يشهدنا ولادة الحقائق الفلسفية أو السياسية الكبرى، مثل الحرية، الديمقراطية، العقل، الخ)، فإن تاريخ السلسلات يهتم بالظواهر المتكررة، ويحلل الواقع الى مستويات مختلفة، وبعبارة أخرى : ا) إنه يدرس التنويعات على المدى البعيد، ولم يعد خاضعا «للدفعة الحدث الغامضة»؛ ب) إنه يعلق كل تصور شمولي للتاريخ، ويعلق بالتالي كل المسبقات التي تتطور وفقها جميع عناصر مجتمع ما بانسجام. فالتحليل الشمولي سيأتي فيما بعد، عن طريق بلورة «نظام الأنظمة»، بعد أن نكون قد صغنا ظروفا خلافية حسب مستويات النشاط المدروسة. وفي انتظار ذلك، فإن تحقيبات التاريخ التقليدي للمجموعات يجب أن يعاد فيها النظر. وهكذا، فإن «**مفهوم النهضة** ملائم دون شك لمؤشرات التاريخ الثقافي، ولكنه دون معنى بالنسبة للمعطيات الإنتاجية الزراعية» (ص. *60*). من الآن فصاعدا، وبعد إهمال دراسة الكليات التاريخية، يجب حصر المستويات المتطورة بإيقاع سريع، و«القطاعات المتسمة بسكونية كبيرة، ضمن مجموع معين.

5 - صناعة العسل من أي شيء : فن إعادة التوجيه وإعادة المعالجة :

يبرهن التاريخ الجديد على مهارة كبيرة في الخلق، إعادة الخلق، وإعادة التوجيه للمصادر التاريخة التي ظلت جامدة، أو اعتبرت مستنفذة نهائيا. ويرتكز هذا التاريخ، كما يقول جاك لوغوف «على تعدد الوثائق : والكتابات بكل أنواعها، الوثائق البيانية، وإنتاجات البحوث الأركيولوجية، والوثائق الشفوية، الخ. إن إحصاء وخطا بيانيا للأثمان، وصورة، وشريطا، أو بذور الحفريات بالنسبة للماضي الأبعد، أو نذرا، تشكل، بالنسبة للتاريخ الجديد وثائق من الدرجة الأولى». إن هذه السطور القليلة، التي تقوم بمهمة الإحالة الضمنية على أعمال مميزة، تذكر بشكل غير منظم، الآثار الخام للماضي وللأدوات التي يبلورها المؤرخ (إحصائيات، منحنى بياني للأثمان)، وفي الواقع، يجب التمييز بين حالات متعددة لابتكار الوثائق الجديدة.

هناك أولا الاكتشاف بحصر المعنى، بواسطة الأركيولوجيا الجوية مثلا، حيث تلتقي تقنية (التصوير الفونوغرافي الجوي)، نظام لقراءة آثار على وجه الأرض (حسب تنوع لون هذا الأخير، والنمو المختلف للنباتات)، سؤال يطرحه المؤرخ، وأحيانا صدفة ما : هكذا فإن جفاف *1976* قد ترجم الى نمو هائل للمعارف حول ماضي التربة الفرنسية (انظر **ملفات الأركيولوجيا**، عدد *22*، يونيه *1977*). وبعد بضعة أسابيع من الجفاف الصحراوي، ظهرت تنوعات رطوبة التربة (التي يحافظ عليها خندق قديم أكثر مما يحافظ عليها جدار مدفون)، بوضوح لم يسبق له مثيل، كشف للمؤرخين عن وجود مئات المواقع النيوليتية، البنايات الغالية ـ الرومانية، والحصون الفيودالية. وفي Beauce تم اكتشاف عدة مواقع ما قبل ـ تاريخية، ومدينة قديمة بفيردس Verdes قرب Chateaudun لازال شكلها، وحماماتها، ومحلاتها الخ، واضحة. وبفوندي Vendéeتم رصد سبعة عشر موقعا جديدا، بها خمسة عشر معسكرا نيوليتيا يحدها سور أو عدة أسوار دائرية، وخمس وعشرون بناية غالية ـ رومانية (تم تصوير تصاميم كاملة لها، لأول مرة بالمنطقة). وقد تم تحقيق نتائج هامة بالشرق، حيث تمت قراءة تصاميم المدن بدقة لا مثيل لها (ص. *50*)، وبكورسول بيريطانيا أيضا، تم ضبط البنية الحضرية لـ civitas coriosolitum على عشرين هكتارا تقريبا.

بعد ذلك عرف **تيار الحوليات**، بالمعنى الواسع جدا، كيف يرفع من شأن الوثائق التي ظلت حتى ذلك الحين متروكة للمهتمين بوقائع الماضي، مهملة في الهوامش، الرسوم أو النوادر، وكفت النصوص التي تحكي عن الاحتفالات والمراسيم، بل وسرد وقائع الاستعراضات والمواكب، عن أن تبقى حكرا على المنقبين المحليين ودخلت ميدان التاريخ الكبير وابتداء من اللحظة التي تم فيها تغليب البحث عن المعنى على دقة الوصف، فإن الطقوس بدت كعناصر كاشفة عن البناء العميق لنظام اجتماعي. وحالة «الأعياد في ظل الثورة الفرنسية»، المدروسة من طرف مونا أوزوف Mona Ozouf (**صناعة التاريخ**)حالة دالة. لقد استأثرت هذه الاحتفالات فعلا، بكل اهتمام أولار Aulard وماتييس Mathiez وأتباعهما، و[لكنهما] لم يهتما منها إلا بالمظهر التخليدي (للحظات الكبرى للثورة) والمظهر السياسي. أما المقاربة هنا فمختلفة، تهتم بالميكانيزمات العميقة للحفل، وما يعبر عنه من هم تصحيح وإعادة كتابة التاريخ. وتلح الكاتبة على السمات التالية في الاحتفال بذكرى الثورة : ا) إنه يعلم [هذه] الثورة للذين لم يعرفوها، عن طريق تركيب تاريخ سنوي وتذكاري لهذه الثورة، التي يحكي مراحلها الكبرى. ويقول بشكل دائب عن طريق اللافتات والأمثال أكثر مما يعرض. ب) إنه يعرض السمات الثابتة أمام الحاضرين، الذين يضعون غالبا كل الأشياء على نفس المستوى، سواء تعلق الأمر بأعياد العقل أو أعياد الكائن الأعلى. إن وظيفة شعائر التعويض هاته، البديلة عن المسيحية، قد تكون

صادرة عن تماثل بين ما هو ديني وبين بعض تجليات الحياة الاجتماعية التي تندرج ضمن ما هو علامة إجماع وتمجيد. ج) إنه يدل أساسا على البداية الجديدة، على موت العالم القديم والتأسيس داخل «زمن جديد»، أكثر مما يصلح للحفاظ على ذكرى. ثم إنه لمن الخطإ ألا نقدم سوى تأويل عقلاني (وسياسي) لهذه الاحتفالات. كل **معاش** عيد الثورة إذن (وليس فقط **المعنى المراد** لهذه الأخيرة، والذي درسه سابقوها) هو ما رفعته مونا أوزوف الى [مستوى] التحليل التاريخي.

ولقد بين عدد جديد من **الأتنولوجيا الفرنسية** (*1/1977*) كل الفائدة التي يمكن أن نجنيها من التحليل المنظم للمواكب ودخول الملوك والأمراء الى المدن. ونلاحظ أن الإجراء البنيوي والتحليل التاريخي (التفسير عن طريق الأصول) يتكاملان أكثر مما يتعارضان، كما في دراسة ت. جولاس T. Jolas، «**جولة مراسيمية بمزارع قروية**» وهي بالمناسبة جولة مينو Minot بساحل الذهب Côte d'Or.

وقد أثارت الوجبات وكتب الطبخ بدورها شهية المؤرخين (انظر ج.ب. آرون «الطبخ، وجبة من القرن *19*»، **صناعة التاريخ**، ، ص *192* وما يليها). فقبل وقت قصير، كانت هذه المصادر تقدم لجامعي الوقائع والأخبار مناسبة للافتتان بالشهية الهائلة للأجداد؛ وابتداء من الآن، أصبح يبحث فيها، برغبة متفاوتة، عن مؤشرات البنيات الاجتماعية والذهنية. يأخذ الكاتب بعين الاعتبار «ثلاثة وجوه من وثيقة الطبخ»، أولا لائحة أثمان المواد المستهلكة خلال *1846* و*1847* بالمستشفيات العامة للمساعدة الاجتماعية بباريس، الشيء الذي يقدم دروسا على مستوى الطب، والاقتصاد، والإدارة. إن الوجبات لم تتأثر كثيرا بأزمة المواد الغذائية خلال *1846-1847*، وتمثل [هذه الوجبات] «صورة مشوهة للرغبات الشعبية كما صاغتها الإيديولوجيا البورجوازية». ويقيم الكاتب أيضا حصة كل مستفيد من الطاقة، والتي تتراوح بين *2200* و*2600* حريرة في اليوم، أي المقدار الضروري من أجل سد الرمق.

بعد ذلك، يدرس ج.پ. آرون بطاقات المطاعم الباريسية خلال سنوات *1880*، «من أجل حصر الحساسية الغذائية». الشيء الذي أدى به الى تحليل المكانة المتباينة لمختلف المواد الغذائية، وإبراز «تقلص قائمة المواد» أواخر القرن *19* (بتأثير من الديمقراطية المساواتية؟) بالمقارنة مع التبذير الذي ميز أواخر القرن *18* وبداية القرن *19*، حيث حافظت المائدة البورجوازية على استمرار تقاليد مائدة الأمراء... وأخيرا يبرز تحليل إعداد المائدة لدى صاحب المطعم الباريسي Antonin Carême (اسم مقصود)، خلال سنوات *1820* - *1840*، **الطابع السانكروني** لذوق القرن *19*، «حيث كان يستهلك كل شيء في نفس الوقت» (الثريدة، الطبق الأول، الأسماك، اللحوم، محليات، كل يقدم في نفس الوقت)، ويسمح بإعادة بناء تقاليد الشره السائدة زمن البورجوازية الغازية.

مصدر آخر كان مجمدا، الفلكلور الذي لم يعد مهملا في اللازمنية، ولا متروكا فقط لفضول الاتنوغرافيين والمسافرين. ففي **رؤية المهزومين**، يبين لنا ناتان واشتل Nathan Wachtel كيف يحافظ الفلكلور المعاصر لدى هنود البيرو، المكسيك وغواتيمالا على آثار الجرح الذي تركه الغزو الإسباني خلال القرن *16*. إنه يحتفظ، من جهة، بذكريات ردود الفعل في القرن *16* (مقاومة المحتلين أو الخضوع لهم حسب الأحوال). ومن جهة أخرى، يحرف الأحداث وفق منطق معين، ليعوض عن الصدمة الأصلية، ويقدم حلا خياليا لمجتمعات فككها الغزو : هكذا يمكن أن يقدم صورة لتعايش، وليس لاصطدام، بين الهنود والإسبان، على نمط التفوق الهندي (إنه الوجه الآخر المتخيل للخضوع للسادة الجدد..). ولا تتوقف إعادة خلق الوثائق عند هذا الحد. فكتب الخوارق في القرون الوسطى مثلا، قد تبين أنها مؤشرات هامة لتصنيف الأمراض في ذلك العصر، بينما تنقل لنا حياة القديسين، ومجموعات المواعظ التي كان يستعملها المبشرون، بعض مفاتيح التقاليد الشفوية، وبعض آثار الديانة السرية التي همشتها المسيحية الظافرة.

من خلال ما ذكرناه من أمثلة، يمكن أن نلاحظ أن التاريخ الجديد يرفع من شأن **إعادة القراءة** (المستوحاة غالبا من اللسانيات، السيميائيات أو التحليل النفسي) للمصادر المعروفة، على حساب قراءة الوثائق الجديدة. هذا الاهتمام الأساسي باقتراح تأويلات جديدة عمل مشروع، ولكنه يهدد على مدى ما بسجن المؤرخين داخل الإرث النصي للقرن *19*. أمام هذا الخطر، بدأ الاهتمام ببحث ونشر مصادر جديدة : والبحث الذي قام به جاك لوغوف وجان ـ كلود شميت حول **أمثال** القرون الوسطى شاهد على ذلك.

والاستعمال المضاد، للوثائق، والذي سبق أن اقترحه بلوخ وفيفر (التساؤل عن معنى خطأ أو زيف ما...) يبدو بدوره طريقا واعدا جدا. وقد بين ذلك مارك فيرو Marc Ferro في «الفيلم : تحليل مضاد، للمجتمع» (**صناعة التاريخ**، III، ص. *256-236*)، حيث يبدو أنه لا يجب اعتبار الفيلم مجرد انعكاس للمجتمع، ولكن كوسيلة للوصول الى الوجه الآخر لهذا المجتمع، وإسقاط مجموعة من الأقنعة عنه. فتحليل أشرطة الأخبار التي تحكي تظاهرات بيتروغراد بين فبراير وأكتوبر *1917*، يبدو مثلا، حسب فيرو، أنها تبين أن المتظاهرين كانوا غالبا جنودا أكثر مما كانوا عمالا. وهذا من شأنه أن يدفع بمن حسم المسألة نهائيا إلى إعادة النظر في عدة أفكار جاهزة حول «التظاهرات الشعبية»، حيث يجب أن يعود الدور القيادي بالضرورة الى العمال، البروليتاريين الواعين والمنظمين، وليس إلى الجنود، المشكلين في أغلبهم من «فلاحين يرتدون الزي العسكري». هكذا تتم تعرية تقليد تاريخي مزيف.

ويفكر بعض رواد التاريخ الجديد في إمكانية الذهاب الى أبعد من الاستعمال المضاد للمصادر، والتفكير في غياب أي وثيقة. ففي **الأنظمة الثلاثة أو المتخيل الفيودالي**، يتوسع جورج دوبيGeorges Duby جدا في غياب الخطاطة الثلاثية (التي ينقسم المجتمع وفقها الى الذين يصلون، والذين يحاربون، والذين يعملون) بين *1030* و*1180* في المناطق الشمالية بفرنسا. ويرى لذلك عدة أسباب : إن رهبان تلك الفترة يرفضون النموذج الثلاثي لأنهم يميلون الى البناءات الثنائية (العناصر المثالية تتعارض مع العناصر القابلة للتطوير) أو الرباعية (رهبان ـ مثقفون ـ فرسان ـ عاملون)؛ إن التنوع الاجتماعي يوجد بدرجة لا تسمح للاهوتيين بالمحافظة على الخطاطة القديمة، وتفرض عليهم أخذ تنوع الأوضاع الواقعية بعين الاعتبار... هكذا يأخذ الغياب معنى، ويتكلم الصمت، وتتبدد المناطق المظلمة. إلا أن الأمر يحتاج الى مهارة الكاتب كي يستخرج هذا القدر من المعلومات من فراغ وثائقي. إن فن إنتاج النصوص هذا (حوالي مئة صفحة!) في غياب أي نص يصل بسرعة الى حدوده، وقد يتكشف عن خطر إذا ما تعاطاه عدد كبير من الأتباع.

هناك حد آخر يصطدم به التاريخ الجديد : «إن مناهج نقد هذه الوثائق الجديدة تنسخ بدرجات متفاوتة عن المناهج التي وضعها منقبو القرون *17*، *18* و*19*. ولا يوجد تصور جديد للوثيقة والنقد الذي يجب أن يمارس عليها إلا بالكاد» (ج. لوغوف). ورغم تعدد المصادر الجديدة، فإن مناهج المعالجة ظلت غالبا تقليدية، باستثناء الإجراءات التي قام بها «آلهة» التاريخ والشعر Cliométriciens و«المهتمون بالبنية بشكل عابر» "pélerins de la structure" (انظر الفصل *9*). فكثير من النصوص التي اكتشفت (أو أعيد اكتشافها) لا تستعمل إلا في شكل تركيب متسرع : وتقدم سلسلة «أرشيفات» أمثلة كثيرة على ذلك، إن المنهجية القديمة **قطع ـ إلصاق** لم تمت! وهناك نصوص أخرى تعالج معالجة سطحية، مع جهل تام بالمقولات اللسانية الأساسية. وأما المعالجة الأيقونية فأكثر تخييبا للأمل : فالأعمال تفكك غالبا الى عناصر، تفتت الى ذرات، ولا تحلل في انسجامها العميق. هناك [إذن] تردد حالات مقارنة لـ Pierre, Joseph, Marie، أوPaul أمام مذابح Tarentaise العليا، أو Cotentin الأسفل (ونقتصر هنا على أمثلة متخيلة) أكثر مما نجد دراسات بنيوية لمذابح محددة، مدرجة ضمن محيطها الرمزي والطقوسي.

بتوفرهم على أدوات منهجية ذات جودة متفاوتة، عرف المؤرخون الجدد كيف يمارسون معالجات جديدة على الاحتياطي الوثائقي الذي كان بحوزتهم، وذلك لتلبية المواضيع الجديدة لفضولهم اللامتناهي. [إلا أنه] من غير المفيد أن نفتتن مرة أخرى بـ «فساتين كليو Clio الجديدة» ونكرر اللازمة المعروفة حول التأريخات الجديدة (للطقس، والأسطورة، واللاوعي، والأكل، والشرب، والولادة والموت، والقراءة والكتابة، والشم

واللمس، الخ) التي ازدهرت خلال العشرين سنة الأخيرة. فهذه اللائحة تستدعي بعض الملاحظات. إنها ليست بريئة من الخضوع للموضة والاستجابة لرغبات الجمهور الواسع، المتعطش لدراسات حول الممارسات الجسدية، وخاصة الحياة الجنسية (انظر ج. ب. آرون : القضيب والغرب) . **والمحيط** يتم تقييمه دائما على حساب **المركز** : فالمهمشون، والمنحرفون، والساحرات يتمتعون حاليا بمعالجة خاصة. يحظى الوجه الآخر للمعاش (المتخيل، الحلم، البناءات الإيديولوجية) باهتمام متزايد أكثر من الشروط الواقعية للوجود. ويميل [المؤرخون الجدد] الى الانكباب على المنافذ المظلمة : الاستيهامات والوساوس (انظر المخاوف المذكورة من طرف جان دوليمو Jean Delumeau، الخوف من الليل ومن الذئب، ومن البحر، ومن المرأة، ومن الجن)، والغرائز المكبوتة، ومحافل السحرة الليلية، وقضايا أخرى متعلقة بعالم الجن (انظر تقديم أ. دانـي A. Danet لكتاب Le Marteau des sorcières لصاحبيه J. Spenger وH. Institoris). فبعد قرن مضى من وضع الكرونولوجيات، وخمس وعشرين سنة مخصصة للسلسلات المرقمة، غرق التاريخ في مناخ من الرومانسية ـ الجديدة : فالأوراح تسكن الخلاء، والشيطان يضاعف شروره، وعودة المسيح الدجال مؤكدة... لقد أصبح التاريخ استعراضا مستمرا، تتوالى فيه الانتاجات ذات الشحنة الاستيهامية القوية، بوثيرة متسارعة، ويتعرض فيه نجوم الأساليب المتألقة لخطر التقادم خلال بضع سنوات. ما أبعد زمن المتواليات الكرنولوجية التي لا تقطعها الا لوحات مريحة، وزمن الآباء مثل لافيس Lavisse، الذين كان بإمكانهم الهيمنة على علم التاريخ طيلة عقود من الزمن. لقد أصبح التاريخ من الآن خاضعا لقانون السوق، مهددا بإتلاف سريع للناس وللتصورات. إن ورثة السيد Mabillon يوحون أحيانا بأنهم اختاروا عملا استعراضيا Show-business، وهو أمر لا يخلو من خطورة.

عن كتاب : Les écoles historiques - Guy Bourdé, Hervé Martin; ed. Seuil - Col. Poirret - Juin 1983.

الهوامش :

1) ترجمنا كذلك les modernistes، وهم المهتمون بالمرحلة الممتدة من منتصف ق. *15* لـ سقوط قسطنطينية Constantinas إلى ق. *18* (انظر (La Rousse مادة moderne)، بينما احتفظنا لكلمة contemporain بمعاصر...